

## تاريخنا العربي

دعوة إلى دراسته وإعادة كتابته من جديد

بمناسبة المؤتمر الثقافي للإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية المنعقد في عمان

للأستاذ كامل السوافيري

نشرت مجلة الرسالة الزاهرة في العدد ٩٩٥ البيان الذي أذاعته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية عن سميها نطلق جيل عربي يمتاز بقوميته العربية ويقدم تراثه الجيد ، وتحقيق الإدارة من أن علم التاريخ هو أهم الوسائل التي تحقق هذه الأهداف، ودعوتها إلى تأليف لجنة من الخبراء في التاريخ لوضع قواعد عامة ، يسترشد بها في تأليف كتب التاريخ المدرسية في البلاد العربية وتقرير مناهج موحدة في هذه المادة في مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى

وأجاء الإدارة الثقافية هذا الاتجاه القوي أمر محمود الأثر جليل الخطر ، إن يكن لنا اعتراض عليه فهو تأخره حتى اليوم . وإننا إذ تمنى للإدارة الثقافية ، ولجنة الخبراء في التاريخ المنبثقة عن الإدارة التوفيق في مهمتها ، نرجو ألا يقتصر الأمر على بحث توحيد المناهج التاريخية في الأقطار العربية ؛ بل يتجاوز ذلك إلى النظرة الفاحصة والدراسة الشاملة الدقيقة للكتب التاريخية المنبثقة في المكتبة العربية

ولست أعددو الواقع إذا قلت إن تاريخ العرب لم يجد منهم العناية اللائقة به ، والدراسة المنظمة لأحداثه ووقائمه ، وتنقيته من الرواسب التي علقته به منذ عصر تدوين العلوم . والتبعية في هذا واقعة على كواهل أعلام الفكر وأقطاب البيان في الأمة العربية ولستأ نريد أن نرجع إلى الوراء لنبغوص في أعماق الماضي اليميد ونوضح الخلط الذي وقع فيه المؤرخون حين تحدثوا عن العرب في الخاهلية وما وقعوا فيه عند الحديث عن هذه الفترة من

أخطاء ؛ ولكننا نقصر ككتنا على التاريخ العربي بمد أن بزغ الإسلام على الجزيرة العربية وأرسل نوره الوهاج إلى آفاق المعمورة فبدد ظلامها ، وأضاء جوانبها . مستعرضين المراحل التي مر بها تدوين ذلك العلم وما وجه إلى طرق تدوينه وجمع أخباره من قد وما أبدى عليه من ملاحظات . لقد مر تدوين التاريخ بمد الإسلام أو على وجه التحديد في أوائل العصر العباسى الأول بمرحلتين : الأولى تدوين الأحداث حسب الترتيب الزمني الذي لها ، وربطها بالسنين وروايتها بطريقة السلسلة ؛ ومن سار على هذه الطريقة المؤرخ المشهور ابن جرير الطبرى . حاكاه فيها - خلفه العظيم ابن الأثير بمد أن أسقط سلاسل الرواة . ومن قبلهما ابن إسحق والواقدي . الأولى في السيرة والثاني في الفتوح . والمرحلة الثانية هي التدوين على غرار الأمر أو الدول والأشخاص كتاريخ الخليفة عمر بن الخطاب أو الدولة الأموية أو الطولونية حيث يترجم المؤرخ للخليفة أو الحاكم ويستعرض ما حدث في عهده من الأحداث ، وقد يتطرق إلى ذكر بند عن حالة البلاد المجاورة في ذلك العهد . ومن الذين ساروا على هذه الطريقة كل المؤرخين الذين كتبوا عن الأمم والأشخاص والبلدان كابن طيفور صاحب تاريخ بغداد ويوسف ابن الذاية والكندي والعنبي وغيرهم .

وفي هاتين المرحلتين لوحظ على تدوين التاريخ أن الأخبار كانت تروى في الرحلة الأولى على علاقتها دون بحث أو تمحيص . وفي الثانية يسقط منها ما لا يرضى الأسرة الحاكمة أو الدولة أو الخليفة . ولوحظ أيضا أن التدوين في المرحلتين لم يمد النواحي السياسية والحوادث التاريخية المرتبطة بحروب الخليفة مع غيره أو المتعلقة بشخصه ؛ حتى ليكاد القارى يظن أن تاريخ الأمة العربية كان جلته حياة ولاة وخلفاء ، ووحدة سنازعات ومخاصمات ، لا تاريخ أمة ولا حضارة شعب . ويبدو ذلك جليا في استعراض المؤرخين للأحداث السياسية الحجازية في أزمانهم وإبرازهم ما يتصل منها بالقادة والخلفاء ، وإهمالهم النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للشعب . ومما لا ريب فيه أن التاريخ ليس هو الجانب السياسى

ولكننا نورد حادثين على سبيل التمثيل لا الحصر يؤيدان ما ذهبنا إليه ؛ هما : فتك النصور بأبي مسلم الحرسانى وتنكيل الرشيد بالبرامكة وفيهما يتضح التخبط فى تعدد الأسباب واختلاف الآراء .

وهناك ناحية أخرى لها أهميتها البالغة وهى الشعوبية المدمرة التى أطلت برأسها فى العصر الأموى ثم استعمل خطرهما فى العصر العباسى فلم تترك خليفة من الخلفاء العرب أو قائداً من عظام قوادهم إلا حاولت أن تنقض من قدره وتخط من شأنه باختلاق الأكاذيب وابتداع الأقاويل التى لا تظلم لها من الحقيقة . لذلك أرى أن تمتد رسالة اللجنة المؤلفة لتوحيد مناهج التاريخ إلى النظرة الفاحصة فى تاريخ الأمة العربية والعمل على إعادة كتابته من جديد . ولا بأس من أن تعمل اللجنة حتى تفرغ من مهمة توحيد مناهج التاريخ المدرسية

وعلى الإدارة الثقافية وأعلام الفكر فى دنيا العروبة أن يوجهوا عنايتهم إلى التراث العربى المجيد البعث فى شتى المراجع ومختلف المصادر تختلط فيه الحقائق بالأساطير ، ويختلف ، فيه مؤرخو العرب مع مؤرخى الأفرنج ، ويوجه إليه المستشرقون غزوات النقد والتجريح ، فيفتقوه من الشوائب ويمسقوه من الرواسب ويخرجوه لإخراجاً جديداً فى إطار جميل تبرز فيه جوانب العظمة وأبجاء الماضى ومناهل العلم وألوان الحضارة مع توجيه النظر إلى التأثير والنور والأبام الحائلة فى تاريخ العرب والإسلام التى تهز المشاعر وتحرك العواطف ، ليقف العربى والمسلم على مجد أمته حين اتسعت رقعتها وترامت أطرافها فضمت معظم أجزاء آسيا وإفريقيا وجزر بحر الروم ثم وثبتت على أوروبا فأنشأت حضارة فى الأندلس استضاءت بنورها دول أوروبا وظلت تدرس فى جامعات الغرب حتى عصور متأخرة . ويبقى بعد ذلك أن نقر أننا لا نريد أن يفهم القراء من دعوتنا هذه مفاخرة العرب لغيرهم من الأمم بالماضى أو الاعتزاز بمعظم نخرة وقبور دارسة ؛ بل نهدف إلى أن يطلع الشباب العربى والإسلامى على الماضى ليربط العرب والمسلمون بين ماضيهم وحاضرهم فيستلهموا من الماضى العزة

المحض للأمة ، ولكنه الوحدة القائمة على تفاعل الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية . وقد ظل هذا التشويش يسود تدوين التاريخ إلى أن ظهر الفيلسوف الاجتماعى المؤرخ العلامة ابن خلدون فى القرن الثامن وألف مقدمته فألقى أضواء متألقة على تدوين التاريخ ، ولم يفته أن يطلع على المراجع التاريخية التى ألفت فى العهود السابقة لمهده وما نقله المؤرخون من الأخبار التى لا سند لها من الحقيقة فهاجمهم وأنكر عليهم تخطيطهم ورسم لهم الطريقة المثلى وأبرز الطاعن المأخوذة على بعضهم إذ قال : وإن كان فى كتب المسودى والواقدي من الطعن والمغز وهو معروف عند الأثبات ومشهور بين الحفظة والفتات (١)

وكان أهم ما أخذه ابن خلدون على المؤرخين القدامى اعتمادهم فى الأخبار على مجرد النقل دون تحكيم أصول المادة وطبيعة العمران ومبادئ الاجتماع .

إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحمك أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالناهب فربما لم يؤمن فيها من المتور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والفسرين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بعميار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار فضلوا عن الحق وناهوا فى ببناء الوهم والغلط (٢) ومع أننا لا نوافق ابن خلدون فى كل ما جاء فى مقدمته وخصوصاً فى محامله على العرب ترى أن طريقته فى تدوين التاريخ كما جاءت فى المقدمة هى الطريقة العلمية . وينبغ على ظننا أنه كتبها بعد أن انتهى من تأليف كتابه لأنه لم يجر على النهج الذى رسمه لنفسه فيها .

ولا نريد أن نضرب الأمثال على تخبط المؤرخين القدامى فى الحوادث فقد سرد ابن خلدون عدداً منها وناقشها مناقشة علمية ،

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤ طبع بيروت

(٢) ص ٨ من المصدر